هجرة الطيور

حفني مصطفى حفني

تليفون المؤلف : ٢٥٣٤٤٣٢

رقم الإيداع: ٧٧٤٩ / ٢٠٠٢

مطبعة الحرف الذهبي
تليفون: ٥٦١٩٦٨٦

إهـــــداء

- إلى الفلاح الأصيل الذى أحب الأرض وخلع شبابه على بساطها الأخضر.
- إلى زرع الغد البهيج الفتيان والفتيات .
- إلى المخلصين الشرفاء الذين يعشقون أرض مصر عشقهم للماء البارد فى اليوم القائظ .
- إلى طيور الفلاح التى مازالت تدافع عن الأرض ببسالة ضد الحشرات الفتاكة.
- إلى كل هؤلاء وإلى القراء الأعزاء أرفع هذا الكتاب .

.. المؤلـــف ..

تقديـــم :

الأرض كالشجرة تحيا وتموت . . إذا تعهدها الإنسان بالرعاية والسقى دبّت فى أوصالها الحياة ، وتموت وتصبح بواراً إذا هجرها الإنسان والحيوان والطير.

فلئن قلنا أن الزرع يشعر بحنان الإنسان الذى يمنحه حبه ويترفق به ، فلا غرابة أن نقول، أن الأرض وهى أم الزرع والشجر والنخل والإنسان، وأم كل شىء ينبض بالحياة ، تحزن لحزن الإنسان، وتفرح لفرحه.

لذلك نرى الفلاح يحب الأرض ويلتحف ترابها ، ويتشبث بأعوادها ويسمع أنينها وشكواها ويهرع فيربت على ظهرها ولا يغمض له جفن ، ولا تهدأ له ثائرة إلا عندما يشاهدها بإذن الله ترتدى ثوبها الأخضر ، وذهب عنها الأنين ، وعلا وجهها البشر ، وكيف لا يشعر بكل هذا وهو يعلم جيدا أنها طوق النجاة .

ونرى الجندى يُسرع الخطو فيدفع دفع السماحة دمه وروحه ثمناً لعزتها وحريتها وهو قرير العين سعيد القلب .

حتى الطيور تعشق الأرض ولشدة وهج هذا الحب الذى يربط الطيور بالأرض ويربط الأرض بالطيور صار العقلاء يجزمون أن ثمة لغة حب تربط الأرض بالطيور لا يعلمها إلا رب الأرض والطيور ، وليس أدل على ذلك من فرحة الطيور وهى تسرع لتمشط الأرض بمناقرها حتى صارت لا تهدا لها حماسة ، ولا يفتر لها إصرار إلا عندما تخرج للأرض الحشرات التى تضر بجدائلها .

وأنا كالطير أحب الشجر والأرض ومن كثرة حبى لهما أجيب بلسانٍ صدوق دائماً على هذا الصوت الصادر من أعماقى سائلاً : من أمك ومن أبوك ؟ فأقول أمى الأرض وأبى النهر ، فلما يسألنى مستفسراً مرة أخرى: أى أرض تقصد ، وأى نهر ؟ أجيب فى بشر : أمى أرض مصر الذى لا ترى عيناى غيرها من بين الأراضين ، وأبى هو النهر الخالد الذى لا يعرف لسانى طعماً لماءٍ غير مائه.

ولأنى أحب الفتيان والشباب وأقدر مشاعرهم الجياشة بالمشاعر الرقيقة أردت من خلال هذا الكتاب أن أنقل لهم عن طريق قلمى كل ما بداخلى من حب لمصر ، فإن رأيته وقد سكن قلوبهم وعقولهم هدأ قلبى وغشيته الفرحة حتى أراهم فى الغد يحملون الرايات من بعدنا ويتعهدون كل شىء حولهم بالرعاية والحب .

ولأنى أومن بهذا الدور الفاعل الذى تقوم به طيور الفلاح (أصدقاء البيئة)، أردت أن تنشأ الحوارات البناءة بين أطراف الحياة على لسان الطير ، على أن تكون قوامها المنطق ، والعقل ، والحجة ، والبرهان .

ففى الصفحات الأولى من القصة الحكاية (هجرة الطيور) أنصب محكمة يقوم الفلاح من خلالها فيُلقى بخيوط التقصير على أصدقاء الفلاح من الطيور ، آنذاك يقف الحكيم أبو قردان نائبا عن طيور الفلاح يدافع بالحجة عن أصدقائه الطيور .

ثم أنتقل فى موضع آخر إلى الحوار الحميم الذى يجمع بين شباب الطيور وبين الأباء حول الهجرة إلى الخارج ، إلا أنه بعد طول تشاورٍ تنتهى الحوارات إلى القرار الصائب وهو الهجرة إلى الداخل (توشكى) .

ولم ينته بى المطاف عند هذا الحد ، بل أطوف بقلمى فى أنحاء توشكى وتطوف معى طيور الفلاح التى فضلت أن تقف على حقيقة ما يجرى على أرض توشكى ، فلما فعلت دار الحوار بينها وبين الشجرة ، ثم الأرض ، ومن بعدها الإنسان .

فلما اطمأنت قلوب الطيور الشابة ، بعدما أدركت بعقولها نسمات المستقبل المشرق ، ورأت حبات الماء الرقراق ينساب من بعيد ، قررت أن تتخذ من أرض توشكى وطنا ، تخلع على بساطه الأخضر زهر شبابها .

حفنى مصطفى

حكمت المحكمة

أصبح الناس فى مصر يتملكهم الخوف عندما يستمعون إلى الأخبار التى تشير كلها إلى أن سبباً خطيراً وراء قلة المحاصيل الزراعية بهذه الصورة الكبيرة التى جعلت كل أجهزة الدولة تعقد الاجتماعات اليومية العاجلة .

وصار التلفاز والإذاعة والصحف اليومية لا يغمض لها جفن فى ليل ، أو نهار لنقل ما يجرى داخل هذه الاجتماعات ... وصدرت القوانين التى تجرم العبث بمقدرات هذا الشعب العظيم .

وكثرت الأقاويل والحكايات ، وخرج من بين الناس من يجزم بأن ما حدث يُعد تقصيراً من الفلاح الذى هجر مدرسة الزراعة التى شيدها جده ، وتربى بداخلها والده الذى أوصاه بحب الأرض قبل أن تخمد منه الأنفاس ، إلا أن الفلاح راح ينظر إلى هجرة الأرض على أنها الحل الأمثل فصار لا يخلع شبابه على البساط الأخضر فضعفت الأرض وهزلت وقل المحصول .

أما البعض الآخر :فعمدوا أن يصموا آذانهم لكى لا يسمعوا هذا الرأى ، إلا أنهم سُرعان ما أشاروا بأصابع الاتهام إلى الأسمدة الكيماوية وكانت حجتهم أنها هى التى فتكت بالمحاصيل الزراعية فتك المنجل بالحشائش .

وذهب البعض بفكره المستنير إلى أن برامج التوعية التى يبثها التلفاز لا تصل فى الغالب إلى مسامع الفلاح ، فلما علت الدهشة الوجوه ، وسألوهم كيف ؟ قالوا: إنها تذاع فى الصباح الباكر والفلاح مازال يَغُط فى نوم عميق لأنه لا يقوى على البكور كما كان أباؤه وأسلافه يفعلون ، أو تذاع فى الوقت

الذى فيه الفلاح يزرع ويقلع فى الأرض ، ولأن الحقل لا يوجد به تلفاز ، ولأن التوعيه لا تصل إلى الفلاح ، فالأمر يحتاج إلى إعادة نظر .

أخذ المذياع والتلفاز ينقلان بالصوت والصورة فى همة العفاريت كل ما يدور من رأى سواء داخل عقول ، أو صدور أبناء الشعب المصرى حول ما حدث للأرض الزراعية ، وما أودى بحياة المحاصيل وهى مازالت فى المهد على غير العادة ، وأدى إلى إرتفاع الأسعار بدرجة مخيفة ، فصارت حتما أصابع الاتهام تشير إلى الفلاح ؟.

وجىء بشيخ الفلاحين ممثلاً عن الآلاف منهم ، ووقف الفلاح بقفص الاتهام وهو يرتعد من شدة الخوف ، وقلبه يخفق بين جنباته والقاضى ينظر إليه ويعدد له التهم المنسوبة إليه وهى : العبث بقوت الشعب ، النوم حتى مطلع الشمس ، إهمال الأرض التى منها معاشنا ، الاشتراك بطريق غير مباشر فى رفع الأسعار التى صارت تثقل كاهل البسطاء من أبناء الوطن".

بعين دامعة حزينة وقف الفلاح يدافع عن نفسه أمام هيئة المحكمة فقال فى حسرة : "يا لحزنى الشديد ، كيف تسمح ضمائر الشرفاء من أبناء هذا الوطن أن تكون سببا فى وقوف برىء فى قفص الاتهام ؟".

يتوقف صوت الفلاح المتهم ليعود مرة آخرى ممزوجاً بالألم والحزن وهو يدافع بكل ما أوتى من حجة عن أبناء جنسه من الفلاحين فيقول: "كيف ترى عيون أبناء هذا الوطن القلة كثرة ؟ أمن المعقول أن نتهم مجتمع الفلاحين بأكمله بأنه يبحث عن التربح فقط ، ويضر بمصالح الوطن ؟ كيف ننسى رأى العقلاء والشرفاء الذى يقول: إن الفلاحين هم صناع الحياة ، كيف تنسينا

بهرجة المرئيات أن الفلاحين صناع المجد والحضارة ومن كان فى قلبه ذرة شك فليذهب ويسأل النهر الخالد ، والأهرامات الثلاثة ، فعندهم الإجابة منذ آلاف السنين ".

بعين مسرورة ، وبلسان فرح يقول القاضى للفلاح: "إن قلبى وعقلى يصدقانك ، لكن الأوراق التى أمامى ، وأصابع الاتهام تجعلنى أسألك: إن لم تكن أنت الذى وراء هذا التقصير فمن هم ، أو من هو الذى جاء بك إلى هنا وأوقعك فى شباك الاتهام والتقصير؟ "

تنهد الفلاح وأخرج من فيه زفرة ألم ، ثم نظر إلى المنصة وقال. "لم أكن أحب أن أعلن أمام هيئة المحكمة عن أسماء الأصدقاء وأقول أنهم هم السبب ، لكن مصلحة الوطن فوق كل إعتبار، ورجائى أن تصدقنى عدالة المحكمة ، وعلى الجمهور ألا يأخذ كلامى مأخذ الهزل ، فإنما نصب الميزان اليوم حتى تعود للأرض عافيتها كما كانت من قبل".

فلما أشار القاضى على الفلاح أن يُسرع فيبصر المحكمة فيذكر من هم المتهمين الحقيقيين ، ساعتئذ قال الفلاح بلهجة البرىء من الذنب : أيها "القاضى الرئيس إنهم طيور الفلاح وكفى".

عم السكون أرجاء المحكمة ، وعلت الدهشة وجوه الحاضريين الذين راحوا ينظرون فى حيرة إلى القاضى لعلهم يجدون عنده الجواب الشافى فتهدأ على إثره نفوسهم الظمأى إلى معرفة الحقيقة ، إلا أن القاضى أسرع فبدَّد دهشتهم حين وجه كلامه إلى الفلاح قائلاً : " دلل يا رجل على اتهامك الخطير لطيور الفلاح ".

قال الفلاح وهو يلملم خيوط الشجاعة المتناثرة بداخله : "كانت طيور الفلاح فيما مضى تسعى سعياً دؤوباً فى تطهير الأرض الزراعية من الحشرات التى تضر بها ، وكان هذا العمل العظيم من جانب الطيور يصرف الفلاح إلى عمل آخر فيه صالح الوطن".

يصمت الفلاح قليلاً وكأنه يقلب صفحات الماضى القريب ، ثم يقول مرة أخرى : "ولما كنا نحن البشر لا تصدق عقولنا البتة أن الطيور قد لا تحترم العهود والمواثيق التى أبرمتها مع نفسها منذ فجر التاريخ لصالح الإنسان ، لذلك كنا نعلل غياب الطيور الدائم عن مواقع أعمالها بأنه الاجتهاد فى العمل الذى جعلهم يفرغون من عملهم فى وقت وجيز وينصرفون ، ولم يتطرق لعقول الفلاحين بالمرة أنهم اتفقوا ، بل عقدوا العزم فيما بينهم على أن يتوقفوا عن عملهم ...فلما فعلوا ، وليتهم ما فعلوا ، خرجت الحشرات الضارة كالتتار من مخابئها التى اتخذتها لها حصناً يقيها من مناقير الطيور التى لا ترحم الأعداء ، وسرعان ما فتكت الحشرات بالزرع ، فلما هزل وضعف وقل الزرع والنبت أخذنا نقلب فى عجب وحسرة الأكف ونحن نشير إلى الأصدقاء الطيور ، آنذاك لم يصدقنا أحد".

صارت قضية الأرض الزراعية والفلاح معقدة لدرجة لا يعرف المواطن معها من هم المتهمين هل هو واحد فقط له قوة ونفوذ فرعون ؟ أم هم مجموعة من البشر أصغوا لوساوس الشيطان فمرضت قلوبهم فانحرفوا عن الطريق ؟

فى همة ونشاط أخذت عدسات التلفاز والاذاعات تصور وتسجل بالصوت والصورة حيثيات الجلسة . وأصبح مشهداً مألوفاً أن يجتمع الناس

حول أجهزة التلفاز ، وكذلك أجهزة الراديو لمعرفة حقيقة الأمر فى هذا الحدث الخطير الذى تبرأ منه الفلاح ، وصار يلصقه فى رقاب طيور الفلاح الصديقة .

أمر القاضى بسرعة ضبط وإحضار الحكيم أبو قردان ممثلاً عن طيور الفلاح لسماع أقواله فيما هو منسوب إلى معشر طيور الفلاح من تهم شنيعة أدت إلى نقص القوت وارتفاع الأسعار .

نظر القاضى إلى أبى قردان الحكيم الذى أمر به فوضع فى قفص للطيور بجوار القفص الذى يقف فيه الفلاح المتهم وتوجه إليه بالسؤال فى شفقة من يرحم الطيور : "يا حكيم الطيور يزعم الفلاحون أنكم معشر الطيور السبب الرئيسى فى نقص المحصول هذا العام ، ولأننا نبذل قصارى الجهد لنصل إلى الحقيقة ، أو بالأحرى لنعرف أصل الداء ، آنذاك نقهره بالدواء ، فياليتك الآن أيها الحكيم تعلن فى شجاعة على الملأ من هم المقصرون ، هل أنتم معشر الطيور ، أم الفلاحون؟"

أخذ الحكيم أبو قردان ينظر تارة إلى هذا الحشد الكبير الذى جاء ليعرف الحقيقة ، وأخرى إلى العدسات التى راحت تتجه إليه لتسجل بالصورة إلى أبناء الشعب المصرى اعتراف أبو قردان حكيم الطيور .

بصوت حزين قال أبو قردان : "كل أبناء الوطن يشهدون أننا معشر الطيور أصدقاء الفلاح ، ولسنا بأعدائه الذين يتربصون به للنيل منه . . ولا يقف الأمر بنا عند هذا الحد ، بل أن صغيركم وكبيركم ، وكل من له عينان يرى بهما ، وأذنان يسمع بهما يعلم أننا نعشق البكور ونسعى إليه كما كان يفعل

الفلاح من قبل ، والأهم من ذلك أننا لا نترك عملنا بالأرض كل يوم إلا قبل الغروب بقليل".

ومن فرط حبنا للفلاح الصديق ، وللأرض الوفية السخية بكل ما فى جوفها من خير اتخذنا من الشجر والنخل الذى يحيط بالأرض سكناً لنا حتى لا تغيب الأرض عن عيوننا ، ولا نغيب نحن عن قلبها النابض بالحب ، حتى صار الجميع يُطلقون علينا "حراس الأرض أصدقاء الفلاح ".

إلا أن صناع الحياة أرباب المجد والحضارة صاروا يمقتون البكور ، ويعشقون الضحى عشقهم للماء البارد فى اليوم القائظ ..وسُرعان ما هانت الأرض على الأصدقاء الفلاحين ، فمنهم من جرفها ، فلما رأوا المرض يدب فى أحشائها أداروا لها ظهورهم ، ومنهم ما باعها وهو يعلم أنها عزه وفخره ، وجلبابه الذى يستر جسده .

لمعت عينا أبو قردان الحكيم بالدمع وقال بنبرة المهموم وهو ينظر إلى القاضى: فلما عرض علىَّ الأصدقاء الطيور أمر الصديق الفلاح الجاحد الذى أصبح يحب المال أكثر من الأرض ، ويحب الثرثرة أكثر من العمل ، أخذنا نتشاور فى الأمر كعادتنا الدائمة ، ورغم التناقص المستمر فى أعداد طيور الهدهد ، وأبو قردان ، وأبو الفصاد ، إلا أننى استحلفت الأصدقاء الطيور أن يبقوا بجوار الفلاح ولا يتركوه ، فلعله يفيق من غيبوبته ويعود لسابق مجده.

إلا أن الصديق الفلاح خذلنى مع أصدقائى وصار يغط فى نوم عميق ، فلما عاد إلىَّ الأصدقاء مرة ثانية قررت ، بل قررنا جميعاً أن نتخلى عن



عملنا وهو تنقية الأرض من الحشرات الضارة بها ، فصار الأمر على ما هو عليه الآن ، وكما تناقلته الاذاعات ، وصوره التلفاز.

ولا أحسب سيدى القاضى أن ما فعله أصدقاء الفلاح من الطيور ضد الفلاح الذى نحبه ، أو ضد الأرض التى تدخر لنا فى بطنها القوت الذى هو الزاد والزواد وليس من حب الوطن أن نخفى على عدالة المحكمة أننا فعلنا ذلك حتى ننزع من على عينى الفلاح الغشاوة التى جعلته لا يرى ما حوله بوضوح ، وننزع من قلبه داء حب المال حباً جماً ليعود مرة أخرى يحب أرضه ، ويخلع على بساطها الأخضر زهر شبابه كما كان يفعل من قبل".

صاح الفلاح وهو يهلل من البشر قائلاً : سيدى القاضى : "ها هو الحكيم أبو قردان يعترف أمامكم ,وأمام كل الحضور أن الفلاح براء مما نسب إليه من تقصير ، وأن طيور الفلاح هى التى وراء هذا الأمر الخطير لما قصروا فى عملهم المتعارف عليه منذ فجر التاريخ ".

طلب القاضى من الحكيم أبو قردان أن يعقب على اتهام الفلاح لهم بالتقصير فقال أبو قردان معقباً : "إذا سلمنا أن اتهام الصديق الفلاح لنا هو الحق وليس الباطل ، فإنى لأنادى بأعلى صوتى من هذا المكان الذى يرفرف العدل فى كل أركانه أن نحاكم الأب ، والمعلم ، والطبيب ، لأن الأول قد تدفعه الظروف إلى أن يقسو على ولده من أجل أن يستقيم عوده ،ولأن الثانى قام فعنف تلميذه لكى يستوعب الدرس فيصير بالعلم عضوا نافعا فى مجتمعه ، ولأن الثالث استخدم المشرط فى بطن المريض من أجل أن يعالج الداء الذى يذهب النوم من عينيه فى الصباح والمساء ".

نظر القاضى إلى الفلاح حبيس قفص الاتهام فوجده منكس الرأس حزيناً ، ساعتئذ قال له : "لا أحسب أن كلام الحكيم أبو قردان يحتاج إلى توضيح . .والآن بعد أن حصحص الحق : حكمت المحكمة حضورياً ببراءة طيور الفلاح من التهم المنسوبة إليها ، وإدانة الفلاحين ، وأخذ الإقرارات عليهم بعدم التقصير مرة أخرى وإلا سحبت الأرض من حوزتهم ، وأعطيت لغيرهم يصونونها ويزيدون من غلتها. وليعلم الفلاحون أن الأرض وإن كانت ملكاً لهم ، إلا أن عافيتها وإنتاجها ملكاً لأبناء الشعب كله ، وأن أى تقصير فيها هو فى الحقيقة تقصير فى حق الوطن .

"رفعت الجلسة".

أثار اتهام آلاف الفلاحين للطيور الصديقة بالتقصير أمام الرأى العام غضب شباب طيور الهدهد ، وأبو قردان ، وأبو الفصاد ، حتى أن هدهداً عُرف عنه أنه هادىء الطباع خرج عن شعوره لأول مرة فقال فى حدة للأصدقاء ": لا أرانى سعيدا لوجودى هنا أكثر من ذلك ، ولاأرانى مسروراً أن يُطلق علينا نحن معشر طيور الهدهد ، وأبو قردان ، وأبو الفصاد "أصدقاء الفلاح "، بل يسعدنى أن يطلق علينا "أصدقاء الأرض".

لما رأى الهدهد أن الدهشة علت وجوه الأصدقاء قال لهم بعدما هدأت حدته : ونعم الصديق الأرض تعطيها القليل تعطيك الكثير ، على ظهرها تشعر بالأمان ، منها خلقنا وإليها نعود ، هى الأم الرؤوم التى لا تذيع أسرار أبنائها لذلك قررت الهجرة إلى أرض غير الأرض ، فمن كان منكم يؤمن بأن الأرض هى الصديق الحميم فليوافقنى الرأى ، ومن منكم لازال يؤمن بأن

الفلاح هو الصديق فليبق يواجه مصيره مع من يدَّعى أنه فلاح وما هو بفلاح فلما هتف الجميع بالموافقة انصرفوا بعدما اتفقوا على استعراض الأمر مع الأباء من خلال الحوار البناء".

●●● ●●● ●●● ●●●

وطنى أعز الأوطان

كان هواء الصباح العليل يُداعب الأغصان، وأشعة الشمس الدافئة تمر على الأشجار وبين الأوراق تزيح عنها ذاك الغطيط الذى نثره عليها الليل ، وينبهها بقدوم الصباح .

فى هذا الوقت ، وعلى فرع إحدى الأشجار وقف ولد أبو الفصاد يحاور أباه تارة يلح عليه ، وأخرى يستعطفه أن يوافقه على الرحيل إلى وطن آخر يكون أكثر قوتا وأقل ضوضاءً فقال : "يا أبتِ فِيمَ إنتظارنا والأرض قد ضاقت بنا ، والأجسام صارت هزيلة ، وصديقنا الفلاح أصبح غير عابىء بنا نحن أصدقاؤه ؟!"

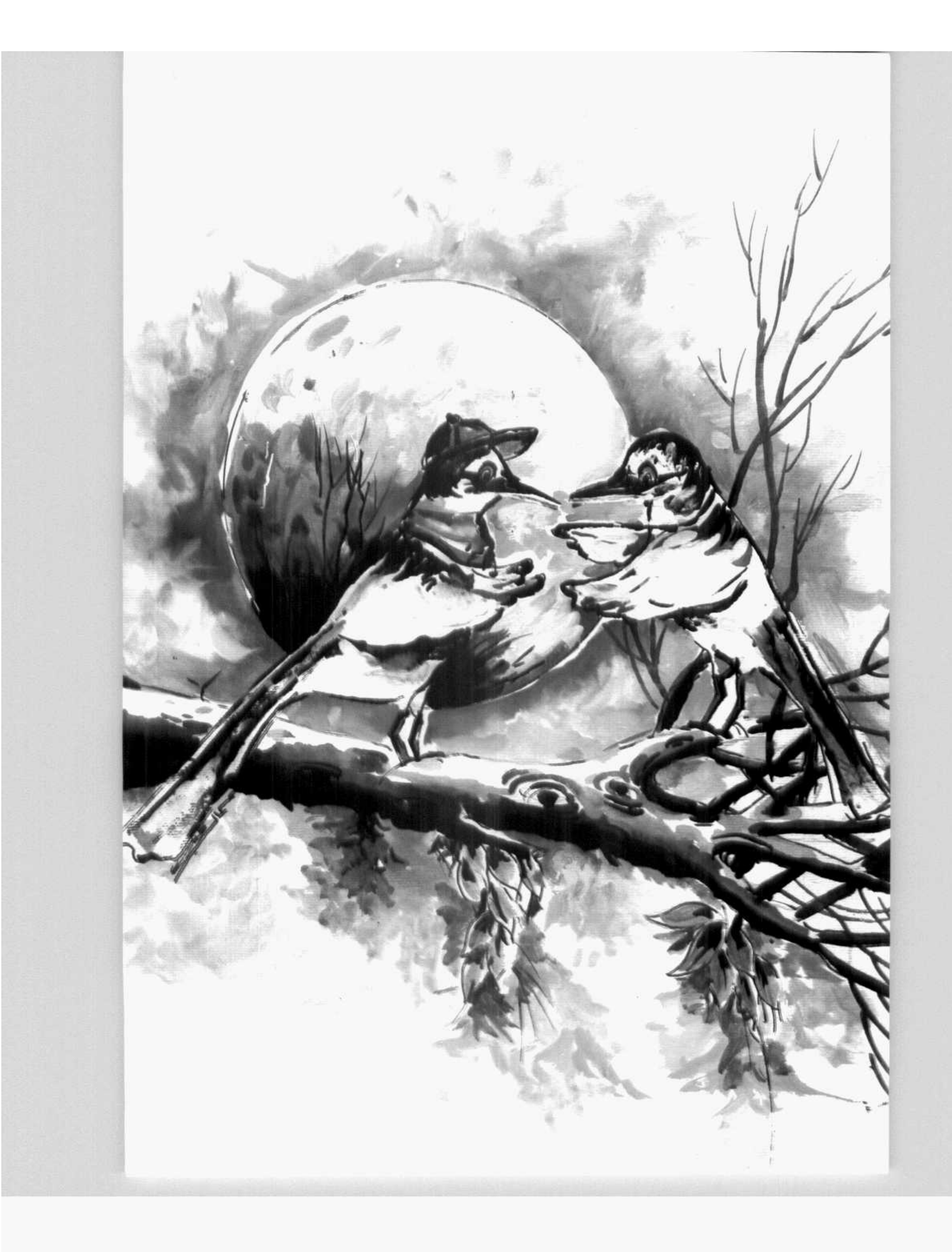
اغرورقت عينا أبو الفصاد الأب بالدمع ، وبصوت حزين أشبه بالأنين الصادر من الأعماق يقول : "مهلاً بُنى ، أوَ تحب أن يكون لك أب غير أبيك؟".

فى دهشة يقول الابن : "اللهم لا ".

يعاجل الأب ابنه مستفسراً بل معلماً فيقول : "أى وطن هذا الذى تبتغى الهجرة إليه ، وتظن أن حبه يعدل حب وطننا الذى نأنس فيه بالأهل والأحباب ؟

أوَ ليس يُبكيك أن نرحل بُعيدا عن النيل والأرض اللذين يشهدان بحبنا لهما كما نشهد نحن أنهما سر الحياة ؟".

ينكس الابن رأسه ويقول معقباً بصوت خفيض : "لكن يا أبت إن الصديق الفلاح صار لا يشغله البكور ، ولا منظر الطيور الساعية إلى رزقها مع ظهور



ضوء الصباح ، حتى صرت أجزم أن حب الصديق الفلاح لأرضه أضحى فاتراً ، فلما دبت الرعشة فى عروق الأرض ومرضت ، لم يُسارع الصديق الفلاح فى علاجها ، بل أقدم على بيعها ..فإذا كان الصديق الفلاح قد أقدم فباع عزه وفخره ، وترك مائدتنا مواتا بوارا ، ففِيَم انتظارنا نحن بعد اليوم ؟

يقترب الأب من ولده وبلسان صدوق يقول . "ليس بالصديق الفلاح هذا الذى تتحدث عنه الآن ".

يقاطع الابن والده ويسأله بصوت متحشرج فيقول : "إذاً من هو الصديق الفلاح يا أبى؟".

الأب : "هو الذى يخلع شبابه على البساط الأسود فلا يتركه ، ولا تهدأ له ثائرة ، ولا يضعف له إيمان إلا عندما يصير البساط الأسود أخضراً يُسر الناظرين ".

يصمت أبو الفصاد الأب قليلاً ، ثم يقول لابنه فى حنان : "لِنرجىء الرد على رغبتك الملحة فى الهجرة لحين اجتماع أسرة أصدقاء الفلاح فى الغد .. "أومأ الشاب بالموافقة وترك أباه وحلق فى الفضاء الرحيب .

••• ••• ••• •••

فلنرحل إلى ديار أخرى

وعلــى شجــرة الكافـور وقف و لــد الهـدهـد الشـاب يجادل أباه فى حميمية فقال : "فلنترُك يا أبى ديارنا ونرحل إلى ديار أخرى فى وطن آخر لعلها تكون أرحب ، لعها تكون خالية من التلوث البيئى الذى أضحى عدونا اللدود ، والذى صار يطاردنا فى كل مكان فيفتك بنا فتك المنجل بالحشائش ، ناهيك يا أبى عــن الكيمـاويــات الــتى صــارت هــى الأخــرى ألد أعداء أصدقاء الفلاح ".

صمت الهدهد الابن ، وتحدث أبوه فقال فى غصة : "قلت مافى نفسك بحلوه ومره ، والآن فلتصغ إلـّى لعل حديثى إليك يجعلك تعدل عن الهجرة وتتشبث بأرض الآباء والأجداد ".

تهدأ ثائرة الهدهد الابن الذى يقاطع أباه قائلاً : "يا أبت لقد علمتنى أن الروابى الصغيرة ليس من حقها أن تغض الطرف عن وجود الجبال الشوامخ والجبال الشوامخ ليس من حقها أن تتجاهل وجود الروابى بجوارها ، ولتعلم الجبال والروابى أن الحياة لا تستقيم إلا بوجودهما معا ".

تهلل وجــه الأب بالبــشر عندمــا سمع حديث ولده إليه ، لعلــه شعــر أن حــوار الآباء مع الأبناء يزودهم حتماً من علم الحياة ، أو لعله أدرك أن حوار الآباء مع الأبناء الشباب لابد أن يرقى لحوار العقل والمنطق .."آنذاك اقترب الهدهد الأب من ولده وقال : " هب أن اعصاراً أصاب أسرتك أتتركها وتبحث عن غيرها؟".



يعقب الابن فى عجلة فيقول: "لا ، بل أواجه الاعصار بكل ما أوتيت من قوة لانقاد أسرتى من براثن هذا الاعصار. ."

تنفرج أسارير الأب الذى يعاجل ولده بالسؤال الثانى فيقول : "هب أن الشمس تأخرت يوماً أو بعض يوم عن البزوغ كما يحدث فى ليالى الشتاء ، أنترك حينذاك ديارنا خواء ونرحل ونحن نعلم أن شمس وطننا أكثر نوراً ودفئاً من شموس العالم مجتمعة ؟".

يعقب الابن فى حماس وسرعة على سؤال أبيه فيقول: "لا ، بل ندفع بنور القلوب والعقول لتنير الدروب والمسالك إلى أن تشرق الشمس مرة أخرى".

يهز الهدهد الأب رأسه ويقول : "أيها الشاب الطموح أظنك الآن تكون قد أدركت ماذا أعنى بحديثى إليك".

ينظر الهدهد الشاب إلى الفضاء الرحيب ، ثم يعاود النظر إلى أبيه ويقول مستفسراً : "أزعم أنك لا تحبذ الهجرة ، بل تحبذ أن يخلع كل منا شبابه ويفنى عمره من أجل الوطن الذى يظلنا بمظلة الأمان ".

يجيب الأب قائلاً : "نعم أنا لا أحبذ الهجرة بلا سبب لكنى أحبذ تلك الهجرة التى تعود بالنفع على الوطن".

يصمت الهدهد الأب قليلاً ، ثم يتوجه بالسؤال إلى ولده فيقول: "أوتدرى؟"

فى دهشة يسأل الابن : "وماذا تريدنى أن أدرى يا أبى؟"

الأب : "إذا هجر الوطن الأقوياء أصحاب العضلات المفتولة ، والعلماء ، فمن يبنى ؟ ومن يبتكر؟ ومن يحول الحلم إلى حقيقة؟!".



تجهم وجـه الابن الذى استأذن أبــاه فـى الانصراف ، فأذن له علـى أمل أن يكـون للحديث بقية فى الغد".

●●● ●●● ●●● ●●●

أيـــن البديـــل

أما ولد أبو قردان فوقف على إحدى الأشجار العالية يحاور أباه لعله يقتنص منه الموافقة على الهجرة فيهنأ قلبه . .وفى تودد اقترب الابن من أبيه وقال : "عهدى بك يا أبى أنك تحب الشباب ، ولا ترفض لهم طلباً ، لذلك أجزم أنك سوف توافقنى على الهجرة إلى وطن آخر".

يبتسم أبو قردان الأب ويقول : "نعم أوافقك شريطة أن يكون هناك بديل".

الابن فى دهشة : "ومن أين لنا بهذا البديل؟".

الأب: "من الوطن الذى تريدنا أن نهاجراليه".

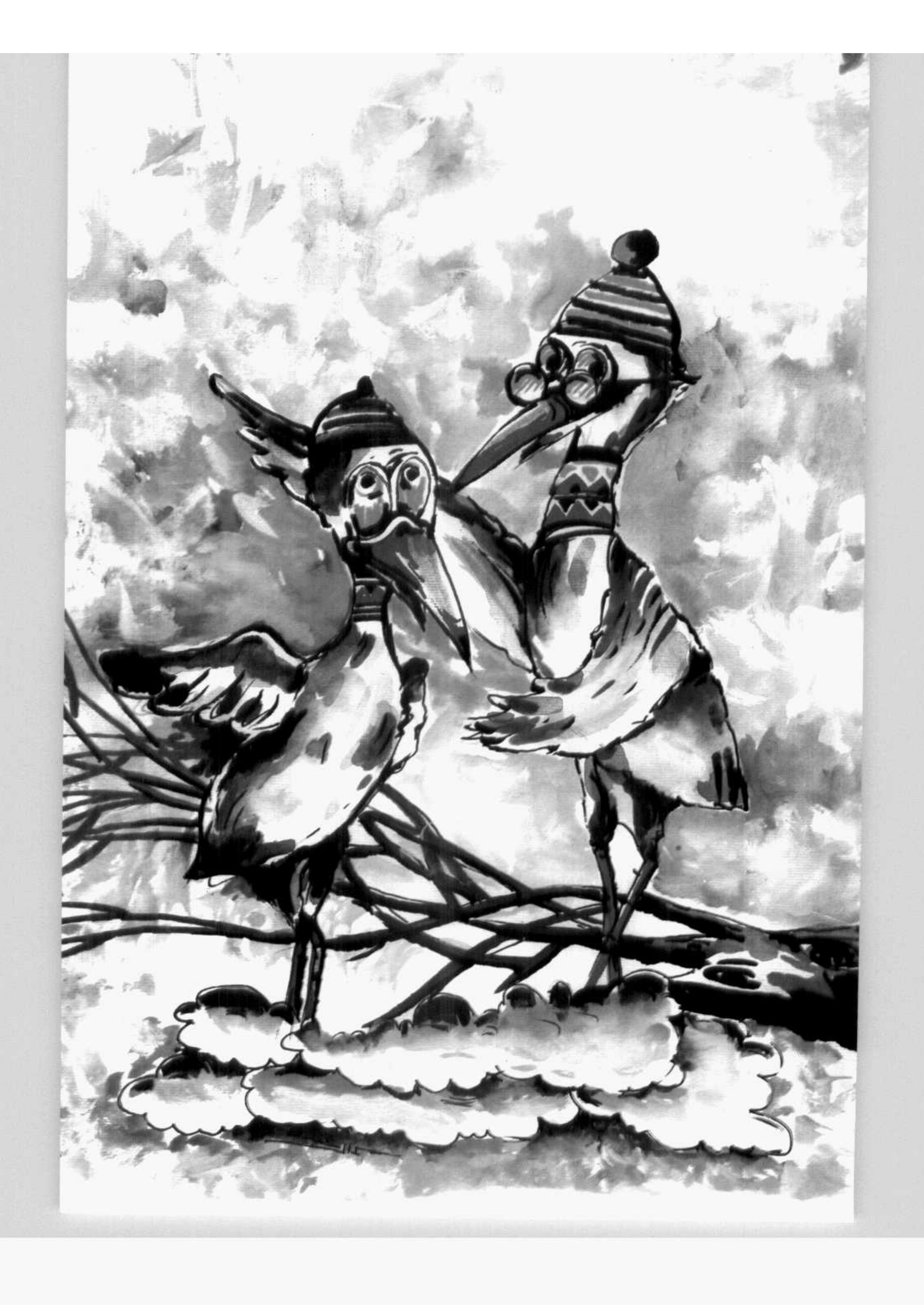
الابن : "وهل يعقل يا أبى أن يوافق البديل على أن يترك وطنه ويأتى إلى هنا ونذهب نحن إلى هناك؟".

الأب : "وهل يعقل يا ولدى أن نبور أرضنا ونقوم باستصلاح أراضى الغير؟!"

فى دهشة يقول الابن : "اللهم لا".

الأب: "إذاً عليك أن تعيد النظر فيما قلته ربما تصل إلى ما خفى عليك وعلى الشباب فى مثل سنك ، ولا أريد أن تسارع بالرد اليوم قبل أن تحاور نفسك وتحكم ضميرك".

••• ••• ••• •••



طـوق النجـاة

مع شـروق شـمـس اليـوم التـالى أصطف أصدقـاء الفـلاح من طيـور أبـو الفصاد ، والهدهد ، وأبو قـردان ليسمعوا القول الفصل للحكيم أبو قـردان فى شأن الهـجـرة .وبظهـور الحكيـم اشـرأبت الأعـنـاق تـنظـر ، والآذان تـتـسمع للحكيـم الذى استـهل حـديثـه قـائلاً: "يـا معشـر الطيـر أصدقـاء الفلاح ، أشهدكُم أنى أوافق على الهجرة اليوم وليس الغد".

حيـنذاك حـدث هـرج ومرج فى صفوف الطيـور الشابـة علامـة البـشر بمجرد إعلان الحكيم قبوله للهجرة ، أما الكبار فصاروا ينظر بعضهم إلى بعض نظرة الاستيـاء مما قيـل ...لكن سُرعان ما تـبدل الحال إلى النقيـض عندما استكمل الحكيم حديثه قائلا : "شريطة أن تكون الهجرة للداخل "

تعالت الأصوات الشابة تسأل وتستفسر فى دهشة عن هذا المكان الذى اختاره الحكيم ، ورأى أنه يصلح لأن يهاجر إليه أصدقاء الفلاح من الطيور.

نظر أبو قـردان الحكيـم إلـى جـمـوع الطيـور المتطلعـة إليه وقـال فى غبطة : "إلى توشكى الحلم والحقيقة سوف تكون هجرتنا".

اقترب أحد الطيور الشابة من الحكيم وقـال : "يا أبانا فلتحدثنا عن توشكى هذا الوطن الجديد ، فليس من المعقول أن نتخذها وطنـاً نهاجر إليه ، ونحن نجهل طبيعة وحقيقة ما يدور على أرضها ".

عم السكون أرجاء المكان وأبو قـردان الحكيم يقول بلسان فخور ، وبقلب عقول ":الهدف من تـوشكى العروس تـنمية جنـوب مصر، وزيادة الرقعة الزراعية والعمرانية من أرض مصر ، والعروس توشكى الفتية تتكون من قناة

رئيسية وفروعها ، ومحطة رفع مياه عملاقة ، ومحطة كهربائية ، وخط كهرباء يمتد من أسوان إلى توشكى".

يدنو أحد شباب أبو الفصاد من أبى قردان ويسأله فى حماس فيقول: "يا أبانا الحكيم فليكن حديثك عن توشكى الوطن والمستقبل أعمق وأشمل لتدرك العقول الشابة الحالمة ما إذا كان خير العروس يزيد ويفيض ، أم أنها لن تزيد عن كونها هجرة من الوادى الضيق إلى الوادى النحيل؟".

تعلو ابتسامة الفخر والاعزاز وجه الحكيم الذى يقول بلسان طلق :ـ لا. بل هى الهجرة من الوادى الضيق إلى الوادى الرحيب الذى يتطلع إليه كل ذى عقل ..فلما سأل أحد طيور الهدهد كيف ؟ ..يقول أبو قردان الحكيم: "توشكى كأى عروس تمر بمرحلتين ، خطوبة وزفاف يستصلح فيهما أثنين ونصف مليون فدان".

يتوقف الحكيم لحظات كأنه يستجمع معلوماته ، وسرعان ما عاد إلى الحديث فقال : "فى المرحلة الأولى تشق قناة بطول مائتين وأربعين كيلومتراً.. يستقطع من هذه المسافة مائة وستون كيلو متراً للقناة الرئيسية التى تقوم باستصلاح خمسمائة ألف فدان بمجرد وصول المياه إليها .

كما تم خلال المرحلة الأولى تركيب وتشغيل محطة رفع المياه التى تقوم بنقل المياه من بحيرة ناصر إلى قناة توشكى .

أما المرحلة الثانية يا أصدقاء الفلاح صانع الحياة فيتم خلالها استكمال شق القناة والقنوات الفرعية بطول خمسمائة وثمانين كيلو متراً .

يتقدم أحد الطيور من أبو قردان الحكيم ويبادره بالسؤال فيقول: "أيها الأب الحكيم حدثتنا عن النهضة الزراعية فى توشكى الوطن الجديد فأمنت جانبنا ، فياليتك تحدثنا عن النهضة العمرانية ؟"

يتحرك أبو قردان الحكيم إلى أن يقف بمحازاة الشاب السائل ويقول: "أيها الابن السائل المخطط أن تنشأ على قناة توشكى ثلاث مدن :

الأولى هى (مدينة أسوان الجديدة) ، والمدينة الثانية هى (مدينة طيبة الجديدة) ، وهناك مدينة ثالثة لم يحدد اسمها بعد .

فور انتهاء الحكيم من حديثه تقترب الطيور كلها منه والبشاشة تعلو وجوهها ، وفى تودد وحماس بالغين تقول الطيور :" يا أبانا لن نتخذ لنا وطناً غير توشكى ، فمتى يا ترى تأمرنا بالهجرة ..اليوم ، أم غداً "؟!

فى بشاشة يقول الحكيم : "بل الآن".

تهللت جموع الطيور من الفرحة ، وراح كل واحد منها يهنىء أخاه وصاحبه بالوطن الجديد الذى صار حبه يسرى فى الأجسام التواقة إلى الهجرة .

استوقف الحكيم الطيور قبل اقلاعها وقال: "تعلمون معشر الأصدقاء من طيور أبو الفصاد ، والهدهد ، وأبو قردان: أن طيور أبو قردان من الطيور المهاجرة التى لا تقوى على تحمل حرارة الجنوب ، لذا أقترح أن تقضى طيور أبو قردان الشتاء بين أحضان توشكى ، وفى الصيف تعود إلى ههنا مرة أخرى ، لكن بمجرد اكتمال جنة توشكى لا أظن أننا سوف نغادرها إلى غيرها".

حلق أصدقاء الفلاح ليبدأوا الهجرة يتقدمهم أبو قردان الحكيم ، ويسابقهم حبهم لتوشكى الحلم والوطن ...

••• ••• ••• •••

وقفت طيور أبو قردان ، وأبو الفصاد والهدهد يتوسطهم حكيمهم أبو قردان على رابية عالية تستريح من عناء السفر وتتنسم معالم العروس توشكى قبل أن ترتدى ثوب الزفاف والطرحة .

بعيون فرحة أخذت الطيور تنظر حولها ، وبعقول حالمة راحت تسجل أولى ذكرياتها ، وبقلوب محبة للخير أخذت تسطر حب الوطن .

وقعت عيون الطيور أول ما وقعت على البيوت التى تمتاز بأنها غير شاهقة فى الإرتفاع فتحجب الرؤية وتشعر النفس معها بالانقباض وعدم الراحة ،وعلاوة على أن البيوت جيدة التهوية فهى مزودة بكل الاحتياجات الضرورية .

صارت الطيور أصدقاء الفلاح شغوفة لرؤية ساكنى الديار ، فلما همت تسعى إلى ذلك استوقفها شدو جميل تناهى إلى أسماعها ، آنذاك توقف أفرادها عن الجلبة وراحوا يصغون فى إهتمام لهذا الغناء الجميل ، وإلى هؤلاء البشر الذين اتخذوا من الغناء وسيلة يعبرون بها عن مقدار سعادتهم لوجودهم فى هذا المكان الذى ارتبطوا به وأضحوا لا يطيقون مبارحته إلى أى مكان آخر ، وكيف يبرحونه إلى مكان آخر وتباشير الخير الوفير من ماء وزرع تنادى ، بل تهتف بلسان صدوق من أعماقها : أن هلموا شباب ورجال هذا الوطن لتصنعوا مجداً تحاكون به العالم من حولكم كما حاكاه من قبل أجدادكم الذين أدركوا أنه لا مجد ولا حضارة بعيداً عن ضفاف هذا النهر الخالد ، وها هى حبات عسله قادمة إلى هؤلاء الرجال والشباب السمر الشداد تذكرهم بالماضى الذى مازال يشهد لهم أنهم رواد الحضارات المختلفة .

إلا أن الطيور أيقنت منذ النظرة الأولى فى وجوه الرجال والشباب أنهم قرأوا صفحات الماضى والحاضر فازدادوا قوة فراحوا يصنعون المستقبل ، والسعادة والأمان يرفرفان من حولهم ، بعد أن شمروا عن سواعدهم القوية غير مبالين بالحر ولا بالصقيع ، فكل هذا حذفوه من عقولهم لأنهم يؤمنون أن مثل هذه الأشياء ليست بأيديهم ، بل بأيدى الله تعالى .

همس شباب الطيور بعضهم فى آذان البعض الآخر ، حينذاك علت علامات البشر الوجوه ، وسُرعان ما تحركت الأرجل ، وانفردت الأجنحة وحلق الشباب فى فضاء توشكى ليتعرفوا على رحابة الوطن ومظاهر جماله .

••• ••• ••• •••

فيمَ حزن الشجرة

وبينما شباب طيور الهدهد وأبو الفصاد وأبو قردان يحلقون فى فضاء توشكى الرحيب يستكشفون ينابيع الخير فى الوطن الجديد الذى سبقهم إليه حبهم له رأوا شجرة عظيمة الساق ، فارعة الطول ، ذابلة الأوراق والأزهار، عديمة الظل ، منكسة الأغصان والفروع ، حزينة .

نظر شباب الطيور بعضهم إلى بعض وراحت عيونهم تتحدث بدلاً من ألسنتهم ، واتفقوا أن يحطوا على الشجرة ويشاهدونها عن قرب ..فلما فعلوا شعروا وكأن ريحاً عاتية تحرك أغصان وأوراق الشجرة تريد أن تقتلعها من مكانها ..فزعت الطيور وحلقت مرة أخرى فى الفضاء طلباً للنجاة .

نظرت الطيور حولها فإذا بالشمس ساطعة ، والرياح ساكنة ، والجو صحو، حينئذ أدركت الطيور أن وراء هذه الشجرة العملاقة ثمة حكاية لابد أن يعرفونها خاصة وأنهم اتخذوا من هذه الأرض المكسوة بالمرجان المضمخ بالزعفران وطناً لهم .

حطت الطيور مرة أخرى فوق الشجرة ، فأحدثت الشجرة أعاصيرها كما فعلت أول مرة ، إلا أن الطيور أصرت على ألا تغادر الشجرة هذه المرة إلى أى مكان آخر ..فلما رأت الشجرة الاصرار واضحاً على وجوه الطيور ، قالت لهم بصوتٍ حزين يمتزج باليأس والقنوط : "إليكم عنى ، عودوا من حيث أتيتم إنى أمقتكم معشر الطير ، ومعشر الإنس ..وراحت الشجرة فى بكاء طويل".

رقت طيور أبو قردان ، وأبو الفصاد ، والهدهد لحال الشجرة ، فزاد الحزن بداخلهم والتمعت عيونهم بالدمع وبكت ، إلا أن الطيور تنبهت إلى أنها



بهذه الطريقة لن تستطيع أن تمحو حزن الشجرة ، فتوقفت عن البكاء وأسرعت طيور أبو الفصاد تقول للشجرة فى فرحة وعزوبة: " يا أم الأطيار والثمار والأوراق والأغصان هونى عليك ، ولتتخلصى فوراً من هذا الكم الكبير من الحزن الذى يكمن بداخلك ، ولتستبدليه بالشهد ، ولا نظن أن الشهد يتمثل فى أى شىء غير حبك للإنسان والطير ".

وقالت طيور الهدهد : "كيف بالأم الرؤوم تتخلى عن حنانها ، وتجعل الحزن يضرب على قلبها ، والشيطان يلعب بعقلها ويرسم لها بريشته حالكة السواد أن الإنسان والطير صارا خصمين لدودين للأم الشجرة ؟".

وقالت طيور أبو قردان التى ورثت المنطق الحكيم عن أبائها : "لم نعرف فى لغة الأشجار أن شجرة صارت عقيمة لا تنجب الثمار لجهل إنسان ، أولقسوة آخر ، ولم نعلم أن شجرة طوت ثوب ظلها الوارف ، واتخذت الكسل خليلاً لها بدلا من النشاط من أجل عدة أسراب من الطيور ، أو بعض نفر من الإنسان ، أوَ تعلمين أيتها الشجرة التى صارت صديقة لنا من اليوم أنك مأمورة من قبل رب الإنسان والطير ورب كل شىء ، وأنك أخطأت خطئاً كبيراً عندما توقفت عن الحياة التى تدب فى أوصالك .."سكتت طيور أبو قردان عن الكلام ، إلا أن كبيرهم نظر إلى الشجرة وقال : "أيتها الشجرة قصى علينا فِيمَ حزنك وبخلك ..فمن يدرى لعلنا نستطيع أن نمحو شطرا منه "أو كله بإذن الله".

قالت الشجرة : "لولا أنى آنست لكم ، ورأيت أمارات الخير ترتسم فى عيونكم، وتلمست الصدق فى حديثكم ما سمحت لنفسى أن يدور بينى وبينكم الحديث ".

هتفت الطيور جميعها وقالت فى فرحة: "نفهم من كلامك أنك وافقت على أن تقصى علينا فِيمَ حزنك ؟ فلما أومأت الشجرة بالموافقة هتفت الطيور مرة أخرى قائلة: "يالفرحة أصدقاء الفلاح وأحباء الأشجار بحديث الشجرة .. وسكتت الطيور وراحت تنصت إلى الشجرة تسمع حديثها ".

قالت الشجرة بعينٍ دامعة: "نحن معشر الأشجار يناجى بعضنا البعض عبر الجذور الضاربة فى الأرض ..سكتت الشجرة قليلاً ثم قالت مرة أخرى : "بلغنى من أخوتى وصديقاتى الأشجار فى كل مكان أن الإنسان تجاوز حدوده وعمى بصره وصار يتنقل من مكان إلى آخر وبيده آلة جهنمية يُطلقون عليها اسم " المنشار "يقوم فيقطع رقاب الأشجار بها بلا رحمة ، وكأن وجودنا فى هذه الحياة جاء عن طريق الصدفة ، أو هو الوجود العشوائى الذى يتعارض مع سنته ، وليس الوجود القدرى من قبل الله سبحانه وتعالى".

تعثرت الكلمات على شفتى الشجرة ، إلا أنها تماسكت وقالت : "أوَ لم يعلم الإنسان أن الشجرة هى الحياة ، وأن الذى يعدم شجرة يكون قد قتل الجمال ، وحبس الهواء النقى والظلال ، وفقد طعامه وشرابه ، ودمر أوكار الطير ، وأحدث خللاً كبيراً فى البيئة .ثم تنهدت وقالت مرة أخرى : "إلى متى يظل الإنسان ظلوما جهولا ..سكتت الشجرة قليلا ثم نظرت إلى الطيور وقالت فى غصة : "لذلك قررت أنا الشجرة أن أبخل على الإنسان بما جاد به الله علىَّ من ثمار وظل إلى حين ..لعله يتنبه لخطورة ما يفعله ".

ابتسم أحد طيور أبى قردان وقال: "أيتها الشجرة وإن كنت صادقة فى كل ما تحدثت به إلينا، إلا أن الضرورة تجعلنا نقول لك: إن من بين بنى البشر رحماء يحبون الأشجار، ويتعهدونها بالرعاية، وأنهم يتألمون لقطع شجرة، أو مرض شجيرة، أو توقف إحدى الأشجار عن الإنجاب لأنها بلغت مرحلة الشيخوخة".

ينظر طائر أبو الفصاد للشجرة ويسألها مستفسراً: "يا أم الثمار والأزهار والطير لو أن شجرة توقفت عن إنجاب الثمار والأزهار والأوراق وصارت عديمة الظل والنفع، ورأى الإنسان بعد مشورة من حوله أن قطع الشجرة والاستفادة من خشبها فى الدفء، أو صناعة بعض الأشياء النافعة له ليس فيه أى تعد على عالم الأشجار، أيكون الإنسان هنا قد أخطأ، أم أنه أصاب"؟

قاطع أحد طيور الهدهد صديقه المتحدث وراح يسأل الشجرة هو الآخر "ولو أيضا أيتها الشجرة البخيلة - على غير عادتها - أن إحدى الأشجار صارت تعيق طريقاً ما، وأنه تأكد للإنسان بالدليل القاطع أن تحتها بترولاً مثلاً، وأن قطعها بات مؤكداً فيه منفعة عامة، أيغض الإنسان بصره عن قطع الشجرة؟ أم يقطعها لأن المنفعة العامة تتطلب منه ذلك"؟

رأى طائر أبو قردان أن النقاش بين أصدقائه الطيور والشجرة أصبح فاعلاً وأن أدبَ الحوار هو سمة المتحدثين، فأراد أن يوضح أمراً، وأن يستفسر عن آخر، فقال فى لطف: "لا أحسب أصدقاء الفلاح أن الشجرة الصديقة تجهل ولو للحظة واحدة أنه ليس كل البشر أشراراً، بل أرادت أن تنبه إلى خطورة ما يفعله أفراد الفئة القليلة الجاهلة الذين لا يدركون بعقولهم أن

الاشجار صديقة للبيئة ، وأن وجودها يحدث توازناً فيها ، إلا أن قلوبهم المريضه تدفعهم دائماً لارتكاب الشر لعلنا نحن أصدقاء الفلاح نكون أكثر فهماً من غيرنا لهذه الحقيقة التى تقول أن الإنسان بيده وليس بيد غيره دمر بيئته ، ولعل هجرتنا من الوادى الضيق للوادى الرحيب خير دليل على جهل الإنسان بكل ما حوله".

سكت أبو قردان المتحدث قليلاً ، ثم قال مرة أخرى وعلامات الجد تبدو على وجهه : "لا أظن أن الشجرة الصديقة تتحرج الآن فى أن تقص على أسماعنا كيف وصل بها الحال إلى هذا الحد من الذبول والانكسار الذى نراه الآن؟ ولماذا هى تكره الطيور وهم أبرياء لا يحملون فى قلوبهم إلا الخير لكلّ من حولهم ، ولا يفكرون لحظة فى إيذاء أحد".

قالت الشجرة للطيور بعد أن كفكفت دموعها : "أيها الطير إذا كان الدواء هو الذى يبث العافية بإذن الله فى الأجسام العليلة فَلْيَعلِم حاضركم غائبكم أن الهواء والماء ، والشمس هم حياة الأشجار ، وأن الشجرة التى تحجب عنها هذه الأشياء تصبح جسداً بلا روح".

يقاطع أحد طيور أبو الفصاد الشجرة المتحدثة وفى دهشة يسألها : "أوَ حُجب عنك الهواء ، والماء ، والشمس ؟ إذاً كيف تعيشين؟ وكيف تقفين أمامنا الآن ؟!".

فى عجلة تجيب الشجرة : "يا هذا الطير الصغير فضل الله لا يُحجب عن أحدٍ من خلق الله وإن كان يعيش فى صخرة صماء لا باب فيها ولا شباك ولكن كل ما حدث أنى لما رأيت أن الإنسان دائم الجحود لنعم الله ، والطير

ذهبت عنى وصارت لا تتودد إلىَّ كما كانت فهدانى تفكيرى ساعتئذ إلى عدة أشياء .. "وتوقفت الشجرة عن الكلام وراحت تنظر إلى الأفق البعيد .

ظن أحد طيور الهدهد أن الشجرة المتحدثة فضلت الصمت عن الكلام ، وأنها لن تستكمل حديثها إليهم فقال لها فى لهفة الظمآن المتطلع إلى الماء البارد فى اليوم القائظ : "لماذا توقفت عن الحديث يا أم الأشجار؟".

راق للشجرة وصف طائر الهدهد لها بأنها أم الأشجار فتبدلت دموع الحزن فى عينيها إلى دموع فرح وقالت: "ولدى الهدهد كيف أتوقف عن حديثى معكم وأنتم الذين أصررتم على أن تمسحوا دمعة الحزن فى قلبى وعينى ..ابتسمت الشجرة وقالت مرة أخرى : "أعطيت ظهرى للهواء غير عابئة منه إلا بالقليل ، وأغمضت عينى فصرت لا أبصر ضوء الشمس إلا بالقدرالضئيل الذى يجعلنى أتنسم الحياة ، أما الماء فأضحى يكفينى منه القطرات التى لا تسمن ولا تغنى من جوع ، فصار حالى كما ترون الآن هو الضعف والهزال والذبول والتوقف عن الإثمار".

سأل طائر أبو قردان الشجرة : "وماذا عن الطيور التى تعزف الألحان والنغمات ؟، ولماذا مقتك لهم ؟".

قالت الشجرة فى خجل: "كانت الطيور تعيش فى أوكارها التى شيدتها على أضلعى وأذرعى من الفروع والأغصان فى أمن وأمان ، هى تسعد بالنوم والراحة والطعام ، وأنا أسعد بقربها منى ، وشقشقتها فى الشروق والغروب ، وتغريدها بلا إنقطاع أثناء النهار ..فلما هجرنى بعضهم دون سبب واضح تمارضت ، أى إدعيت المرض والذبول لأعرف الأحباب من غيرهم الذين

هجرونى بلا كلام ، أو سلام ، أو زيارات ، وكأن حبهم لى لداع ، فلما انقضى هذا الداع تبعثرت محبتهم ، وتبعثر ودهم وذهب أدراج الرياح ..وأصبحت منذ ذلك اليوم أكره الطير ، وأكره بنى الإنسان ، حتى هذا الصوت الذى يصدر كل يوم من حناجر هؤلاء الرجال العظماء الذين جاءوا من كل حدب وصوب ليعمروا وطنهم غير عابئين بحرّ الصيف وبرد الشتاء أصبحت أمقته هو الآخر".

وبعد توقف عن الكلام لم يدم إلا قليلاً قالت الشجرة للطيور وهى تنظر إليهم : "لكن لا أخفيكم سراً أن حالى قد تبدل الآن إلى سعادة ، وسرت العافية والدفء فى جسدى حين رأيت جمعكم يلتف من حولى وبيد كل واحد منكم الدواء ، ودوائى أعزائى الطير لا يباع ولا يشترى ، إنما ينطق به اللسان ، وهو عبارة عن كلمات طيبة من القلب تعبر عن المودة والألفة ، وأنتم فعلتم معى ما لا تقوى الحجة ولا البيان ، أو اللسان عن وصفه ، فيكفى أنكم ذهبتم بهمى وحزنى وأحللتم مكانهما السعادة بإذن الله، لذلك أعدكم أن أعود مرة أخرى أحب كل شىء حولى ، وألا أقسو على من قسا علىّ ، وأن أغفر لمخلوقات الله زلاتهم ، وأن يتفتح قلبى لمحبتهم ، وأغلق أمام البُغض كل الأبواب ، آنذاك تسعد القلوب ، وتقر العيون وتحلم العقول".

هتفت الطيور جميعها بحياة الأشجار وبدورها النافع والفاعل فى الحياة ، وعزمت على كتابة وثيقة حب تجمع بينها وبين الأشجار ، وأقسمت الشجرة بالله خالق الأشجار وخالق كل شىء أن تجود بالأنفاس والثمار وبكل شىء تمتلكه من أجل الصديق الإنسان ، والأصدقاء الطيور".

انطلقت الطيور فى الفضاء تسعى على رزقها ، وأعطت الشجرة وجهها

للهواء ، وفتحت عينيها لضوء الشمس ، وصارت تستقبل قطرات الماء العذبة فى فرحة ، وطربت أذنيها لسماع غناء الطير من سكان توشكى ، وكذلك غناء الرجال السمر الشداد .

فى فضاء توشكى الرحيب أخذت الطيور الفرحة تسابق بعضها البعض ، وكيف لا تفرح وهى حين تنظر لا تجد أبراجا أسمنتية تعيق حركتها ، أو تحجب عنها الرؤية ، ولا تسمع ضوضاء تصدر عن أرعن جاهل تصم الأذان ، ولا تشاهد حرائق مفتعلة ، أو سحب دخان تتسلل بسمها الزعاف إلى داخل الأجسام فتصيبها بالمرض العضال .

شعرت الطيور بالظمأ الشديد فنزلت من عليائها قاصدة النهر فشربت من عسله قطرات ذهب على أثره ظمأها ، ولم تقف الطيور أصدقاء الفلاح مكانها بعد ذلك ، ولم تستسلم للراحة ، بل راحت تبحث عن القوت فوجدته بعد عناء وبحث أنه كثير فى بعض النواحى ، وقليل فى النواحى الأخرى .

••• ••• ••• •••

فلتصغوا إلىّ يا أصدقاء

وقفت الطيور الشابة تتحدث بشأن القوت ، وسُرعان ما قررت فيما بينها ألا تغادر هذا المكان إلى حيث يوجد الأهل والأحباب إلا عند الوصول إلى حل موضوعى يقدمونه للأهل الذين تحملوا معهم عناء الهجرة .

تطاولت أعناق الطيور تنظر إلى الصديق أبو قردان الذى بدأ كلامـــه فقال: "قبل الحديث عن القوت زاد أو نقص ، علينا أن نأخذ فى الإعتبار عدة أمور وإلا سوف يصبح حديثنا لا طائل ولا فائدة مرجوة منه".

علت الدهشة الوجوه وراحت طيور الهدهد تسأل أبـــو قـردان فـى لهفة: "أيها الصديق ما هى هذه الأمور التى تريدنا أن نأخذها فى الحسبان؟"

فى هدوء ووداعة قال أبو قردان : "تعلمون جميعاً أننا لم نترك الوطن الكبير ونأتى إلى توشكى من أجل قلة الطعام ، لكن من أجل تلوثه فى المقام الأول ، وأقول هذا لأنى أعلم كما تعلمون أن قلة الطعام مع تنوعه تساوى الصحة والقوة ، وأن كثرة الطعام تساوى التخمة والمرض".

توقف أبو قردان المتحدث عن الكلام وكأنه يستعيد ما لقنته له الأيام من تجارب وما تلقاه على يدى والديه ، فلما رأى الأصدقاء متلهفين لسماع حديثه قال مرة أخرى ":وتعلمون أيضاً أننا ألححنا إلحاحاً كبيراً على أبائنا فى أن نهاجر ، فلما كانت هجرتنا إلى الداخل وليست إلى أوطان الغير ، كان لزاماً علينا أن نترفع عن صغائر الأمور ، وأن نتحمل الصعاب مهما عظمت ، وإنى أعلم علم اليقين أن الخير الوفير قاب قوسين أو أدنى ، وأنى أشم رائحته المضمخة بعرق السمر الشداد من بنى البشر عن قرب".

••• ••• ••• •••

سمعت الطيور ضحكات عذبة خافتة تنم عن سعادة كبيرة ، إلا أنها لم تتبين من أين تصدر ، هل هى تأتى من بعيد تحملها الرياح؟ أم هى صادرة من أعماق الأرض ؟ فلما تبينوا أنها صادرة من أعماق الأرض أصابتهم الحيرة والدهشة ، إلا أن بعض نفر من طائر الهدهد قال مستفسراً : "أى عجب أسمعه الآن يا معشر أصدقاء الفلاح ؟ ..الإنسان يضحك ويتكلم فلا غرابة فى ذلك ، أما أن الأرض تضحك فهو الأمر الذى لا تعيه العقول ..ثم يقول هدهد آخر معقباً على كلام صديقه: " ـ لا ـ بل يؤكد صديقنا الإنسان أن الأرض تتكلم العربية ".

فى حماسةٍ وغيرة وحب يقول أحد طيور أبو الفصاد : "نعم الأرض لا تعرف لغة غير العربية وإن كنتم فى شك من قولى هذا فلتسألوا أنفسكم بأى لغة تسبح الأرض والطير والأشجار والأنهار والبحار وكل خلق الله فيما عدا الإنسان ؟".

ينظر أبو الفصاد إلى وجوه الأصدقاء فلما يرى الأفواه قد فغرت حينذاك يقول بلسان الواثق : "إنها تسبح بلغة القرآن التى سوف تبقى بقاء الدهر".

لما توقف أبو الفصاد عن الكلام قالت الأرض بصفاء وحياء من شرب من ماء النيل ، وتكحل بطينه : "يا شباب الطير من أصدقاء الفلاح أشهدكم أنى أحبكم حبا لا تقوى قلوبكم الصغيرة على حمله".



يقاطع أحد طيور الهدهد المعروف عنها عشقها للأرض ويقول لها فى لهفة المحب: "يا أرض فلتعلمى أن حبنا لك لم يأت من فراغ ، إننا وكلُّ الكائنات الحية خلقنا بإذن الله من ترابك، حتى طعامنا أنت تدخرينه لنا فى بطنك ثم تطرحينه جدائل من خضرة بالهناء والشفاء للجوعان ، وإن بخلت علينا السماء ، أو تأخر عنا ماؤها يوماً أو بعض يوم أسرعت أنت تجودين بما تدخرينه لنا فى جوفك من ماء إلى أن تجود علينا شقيقتك السماء ..فإن كنا يا أرض توشكى الحبيبة قد خبرناك بما يجيش بداخلنا من حب نحوك ، فعليك أنتِ إذاً أن تقصى علينا فِيمَ حديثك معنا وأنت التى تفضلين الصمت عن الكلام ؟".

بصوت تتموج فى مقاطعه الرقة تقول الأرض : "أيتها الطيور من أصدقاء الفلاح فلتعلموا جميعاً ، وليعلم حاضركم غائبكم أنى أحب كل مخلوقات الله ، كباراً وصغاراً ، ولكن حبى للشباب أشد ، أتدرون لماذا "؟

الطيور فى دهشة ":اللهم لا ."

الشجرة : "لأنهم هم الذين يسابقون الشهادة بصدورهم وتسابقهم ، فلما تسبقهم تقر عيونهم بها ، وتنبض أرواحهم بالحياة بعد أن تسكن أجسامهم للأبد ، وهم الذين يدفعون حياتهم عن طيب خاطر ثمناً لحريتى وهم الذين يشمرون عن سواعدهم المفتولة ويتعهدوننى بالرعاية فى الليل والنهار دون كلل أو ملل، ولا تهدأ لهم ثائرة ، ولا يضعف لهم إيمان ، إلا عندما يرون العافية قد دبت فى أوصالى ، والعافية عندهم علامتها اللون الأخضر الذى صاروا لا يعشقون غيره ، فكيف لا أحب هؤلاء الذين يحبوننى كل هذا الحب ، ويرتبطون بى كل هذا الإرتباط الذى إن تحدثت معكم عن بعضه ،

فإنى لأعجز عن وصف أكثره".

أخذت بعض الطيور تجول ببصرها فى أنحاء المكان دون أن تنبس بكلمة واحدة مكتفية بلسان عينها الذى يملك بثراء الإفصاح عما بداخلها ، حينذاك أدركت الأرض بفطنة الأم الرؤوم ما يدور بأخلاد هذه الطيور فقالت لهم مُطمئنةً إياهم "أيها الأبناء من الطير فى كل ربوع الدنيا ، الرزق يزيد وينحسر (يقل) ن مكان لآخر ، وهذا ليس بالشىء الذى يؤرق أحدا ، أما عنى أنا توشكى فمهلاً علىَّ أيتها الطيور إلى أن أتزوج وأنجب لكم من الخضرة أصنافاً وأصنافاً ، والإعداد لزواجى كما ترون يقوم على قدم وساق ، بحب لا تحركه الآلات والأوناش ، بل تحركه قلوب وعقول لا تعرف إلا العمل ، ولا تنبض إلا بالإيمان ".



نظرت الأرض إلى أحد طيور أبو قردان فعرف أنها تستحثه على الكلام ساعتئذ ، قال للأرض: "أيتها الأرض ، بل أيتها الأم الصديقة ، قبل أن نقلع ونتركك لمشاغلك الكبيرة نريد أن تسدى إلينا النصيحة:.

قالت الأرض وعلامات البشر والسرور تبدوان على جبينها: "تركتم وطنكم الكبير وكانت هجرتكم إلى الداخل ، أى إلىَّ أنا العروس توشكى ، لما صار طعامكم وشرابكم ملوثاً بالكيماويات ، والهواء من حولكم صار هو الآخرملوثا بعوادم السيارات وأدخنة المصانع ، وأصبحت أجسامكم لا تتحمل هذا الكم الهائل من التلوث الذى أودى بحياة الكثيرين منكم ..ولما كانت هذه الأمور بيد الإنسان فإن نصيحتى لكم أن تذهبوا إليه الآن وهو فى سامره ، فأغلب ظنى أن هؤلاء السمر الشداد الذين فضلوا العيش هنا مثلكم

يعشقون الحرية ويرفضون التلوث ، بل يكرهونه".

إختفى صوت الأرض وعاد كما كان إلى الأعماق ، وحلقت الطيور تبحث عن سامر الإنسان ليدور بينها وبينه الحديث .

••• ••• ••• •••

إنهم يصنعون مجد بلادهم

وبينما الطيور محلقة فى فضاء توشكى الرحيب شاهدت الرجال والشباب يتجاذبون أطراف الحديث والسعادة تحفهم من كل جانب ، فلما حطت الطيور بجوار الجمع السعيد من الرجال والشباب توقفوا عن الحديث وفى وداعة ولطف سأل أحدهم الطير فقال ":فِيمَ قدومكم إلى هنا أصدقاء الفلاح وأنتم الأثرياء الذين تحبون موائد الطعام المكتظة بكل أصناف الطعام "؟

قال هدهد معقباً : "إنما جاء بنا ههنا الإيمان والولاء ".

قال الرجل فى دهشة : "الإيمان والولاء بمن ولمن ؟".

الهدهد : "الإيمان بالرسالة ، والولاء للوطن ".

قال الرجل فى بشر للهدهد المتحدث : "إن الكثيرين من البشر لا تتجاوز معلوماتهم عن الهدهد إلا أنه يملك الشكل الجميل والألوان الزاهية ، والحقيقة أن الهدهد كان دليل سليمان عليه السلام فى الماء يشاهده عن بعد بالعين المجردة فيعلن عن مكانه .. يصمت الرجل ثم يقول مرة أخرى : "يا هدهد وإن كنا نحن البشر نفتخر بأننا أحفاد العظماء الفراعنة ، فإن من حقكم أنتم معشر الهداهد أن تفتخروا بجدكم الكبير "**يَعْفُور** " هدهد سليمان عليه السلام الذى ملك الحجة والبيان والذى جاء من سبأ بنبأ يقين".

لما سكت الرجل تحدث أحد الشباب فقال : "ياليت أحد طيور أبو قردان يقص علينا فِيمَ مجىء الطيور إلينا الآن؟".



قال أبو قردان : "إنما نحمل لكم تحية أبناء الوطن من أقصاه إلى أقصاه ودعاء الأرض لكم بالنجاح والفلاح ، ولم نأت إلا من أجل أن نستحلفكم بكل ما هو غال وعزيز أن تلقوا بمعاول التجريف أرضاً ، وبعدونا اللدود الكيماويات غيابات الجب ، وأن نأخذ عليكم عهداً ألا تقربوا لنفير السيارات وأبواق الضوضاء إن كنتم فاعلين".

فى حماسة يقول أحد الشباب : "يا صديق الفلاح صانع الحياة ، لقد أدميت قلوبنا ، وأثرت حفيظتنا .. "يصمت الشاب قليلاً ويعاود حديثه مرة أخرى فيقول : "كيف نحمل معاول التجريف ونحن نعلم أنها الدمار ، أوَ تعلمون أننا جئنا إلى هنا وتركنا الأبناء والأهل والأحباب لنعمر الوطن ونزين أرضه باللون الأخضر ، فهذا هو أملنا الذى نعتبره أغلى من الذهب".

ولا أحسب أن الكيماويات والمبيدات هى عدوكم أنتم فقط ، بل هى العدو اللدود لكل من له عقل وبصيرة ، أتدرون لماذا؟ قالوا: اللهم لا ...قال الشاب":لأن الكيماويات والمبيدات تقضى على أسماك النهر ، وعلى أسراب الطير خاصة أنتم أصدقاء الفلاح والبيئة ، والأخطر من هذا وذاك أنها تؤثر بالسلب على صحة الإنسان خاصة على المدى الطويل".

قاطع أحد الرجال الشاب المتحدث واستكمل هو الحديث قائلاً : "لو جئتم قبل الآن بقليل لسمعتمونا ونحن نقسم أن نحارب الضوضاء وأن نضرب بشدة على أيدى العابثين الذين لا يدركون نعمة الهدوء الذى نعيش فيه هنا فى كنف توشكى".

فى فرحة يقول طائر أبو القصاد : "أيها الرجل الطيب أنتَ بكلماتك هذه قد ملأت قلوبنا بالفرحة والسعادة ، وإنى لأطلب منك فى إلحاح أن

تقص على أسماعنا نحن معشر الطير فيم بغضكم للضوضاء "؟

قال الرجل : "ياهزاز الذيل أبو الفصاد ، كيف لا نبغض الضوضاء إلى هذا الحد ونحن نعلم أنها تصيب الإنسان بالصمم ، وترفع نسبة الكوليسترول فى الدم ، وتفقد الإنسان شهيته للطعام ، وهى أيضا وراء عدم تحصيل الأبناء لدروسهم ، فكيف وهى كل هذا نقف مكتوفى الأيدى ولا نحاربها حتى نقضى عليها تماماً، ولن نقضى عليها إلا عندما نحمل مشاعل الحب والتوعية فى الشارع ومن خلال وسائل الإعلان".

هتف أحد طيور الهدهد وقال لرجال والشباب فى فرحة: "اذاً أنتم تنعمون بكل وسائل السعادة ههنا ، ولا ينقصكم إلا تحقيق الحلم الذى جئتم من أجله؟!.

يقول أحد الشباب معقباً : "نعم هو كما قلت ، وإن كان ينقصنا القليل من وسائل الترفيه والثقافة ، لكن هذا أمر عارض لن يستمر طويلاً لحين الإنتهاء من بناءالمدن الجديدة".

حيت الطيور الرجال والشباب على عزيمتهم التى لا تلين ، وإصرارهم الذى يقهر الصعاب ، واستأذنوا فى الانصراف ، فلما أُذن لهم حلقوا فى الفضاء والبشر يحيط بهم من كل جانب .

الفهـــــرس